المجلس (٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ الأتمان الأكملان عَلَىٰ المبعوث رحمةً للعالمين، وعَلَىٰ آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ.

أَمَّا بعد؛

فمعاشر الفضلاء نحن بعد عصر الجمعة في شهر رمضان المبارك، فيجتمع لنا في هٰذَا الوقت سببان عظيمان من أسباب إجابة الْدُّعَاء؛ أَوْلها: الساعة في يوم الجمعة الَّتِي لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ قائمٌ يصلي يسأل الله شيئًا إِلَّا أعطاه إياه، **وأرجح الأقوال وأقواها في هٰذِه الساعة قولان:**

- **القول الأول:** أنها من حين صعود الإمام عَلَىٰ المنبر إِلَىٰ حين الفراغ من صلاة الجمعة.
- **والقول الثاني:** أنها بعد العصر من يوم الجمعة، وهٰذَا القول قولٌ قوي.

فيقول أحدكم: إنكم قلتم لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ قائمٌ يصلي، ونحن الآن لا نصلي، فأقول: إن مَن صلى ثُمَّ جلس في المصلى فهو كالقانت، كالقائم الَّذِي يصلي، والسبب الْثَّانِي أننا صائمون، وثلاثةٌ لا تُرَد دعوتهم الوالد، والصائم، والمسافر، والصائم يدعو في أي وقتٍ من يومه؛ بعد الفجر، وقبل الظهر، وبعد الظهر، وقبل العصر، وبعد العصر، وقبل الفِطر.

ونحن الآن في آخر يومنا، والعلماء يقولون: إن آخر وقت العبادة أسمَع ما يكون للدعاء فيها، فأسمَع ما يكون الدعاء في الصلاة في أخرها، والصوم في آخره قبل الفِطر، نعم روايات: والصائم حَتَّىٰ يُفطِر، والصائم حين يُفطِر ضعيفة من جهة الإسناد، لكن من حيث قاعدة الشريعة: أن آخر العبادة أسمَع للدعاء فيها هي قاعدةٌ صحيحة، فنرجو الله عَزَّ وَجَلَّ هٰذَا الوقت إِذَا دعونا أن يجيب دعائنا.

فأَوْصي نفسي وإخواني بالدعاء الخاص والعام، فأدعوا لنفسك، ولوالديك، ولأهلك ولذريتك، ولأحبابك، وأدعوا لولاة أمرِك، وادعوا لبلادك، وادعوا لعلماء بلادك، وادعو لكل مَن يقوم بمصلحةٍ عامة للمسلمين، فاجتهد في الْدُّعَاء.

كما أنبه نفسي وإخواني إِلَىٰ أمرٍ يخصنا في هٰذَا المجلس ومَن جلس مثل مجلسنا: وهو أن نملأ قلوبنا رجاء برحمة الله، ومغفرة الله، وجنة الله، وخوفًا من عذاب الله، وأن نسأل الله ذلك في أثناء جلوسنا في المجلس، فإن لله ملائكةً سيارين يلتمسون حِلَق الذِّكر، فإِذَا وجدوا حلقة ذِكر جلسوا مع أهلها، وحف بعضهم بعضًا حَتَّىٰ يبلغوا ما بينهم وبين السماء الدنيا.

فعندما يعرجون إِلَىٰ السماء يسألهم الله وهو أعلم بعباده: من أين جئتم؟ فيقولون: من عبادٍ لك يذكرونك، ويثنون عليك، ويمجدونك، ويسألونك، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: وما يسألونني، فيقولون: يسألونك الجَنَّة، فيقول ربنا الكريم سُبْحَانَهُ: وهل رأَوْا جنتي؟ فيقولون: لا، فيقول سُبْحَانَهُ: كيف لو رأَوْها؟ ويقولون: ويستجيرونك، فيقول ربنا الكريم: وَمِمَّا يستجيرونني؟ فيقولون: من النَّار، فيقول: وهل رأَوْا ناري؟ فيقولون: لا، فيقول سُبْحَانَهُ: كيف لو رأَوْها؟ فيقولون: ويستغفرونك فيقول الكريم سُبْحَانَهُ: أُشهِدُكم أني قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مِمَّا استجاروا.

فتقول الملائكة عليهم السلام: فيهم فلانٌ عبدٌ خطاء ليس منهم جاء لحاجةٍ فجلس معهم، فيقول الكريم سُبْحَانَهُ: وله غفرت فهم القوم يشقى بهم جليسهم، ونحن في مجلس ذِكرٍ لله عَزَّ وَجَلَّ، وأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ: أن نكون فيه من المخلصين، فنسأل الله أن يستجيب دعائنا؛ اللّٰهم أرزقنا الجَنَّة، اللّٰهم ارزقنا الجَنَّة، اللّٰهم أجِرنا من النَّار، اللّٰهم أجرنا من النَّار، اللّٰهم اغفر لنا، اللّٰهم اغفر لنا.

ونحن بحمد الله معاشر الفضلاء قد اجتمعنا في بيت من بيوت الله، بل اجتمعنا في ثاني أفضل بيوت الله في مسجد: مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جلسنا في ثاني أحب بِقاع الأرض إِلَىٰ ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نتدارس كتاب الله، ونتلوه، ونتدبر معانيه، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إِلَّا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمَن عنده، فأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ: أن يحقق لنا هٰذَا، وأن يزيدنا من فضله.

فمجلسنا كما تعلمون أَيُّهَا الإخوة في تدبر كلام ربنا في تفسير القرآن الكريم، ونحن لا زلنا نفسر سورة المُلك، وقد تقدم الكلام عن تفسير بعض آياتها، وفي آخر المجلس الماضي قرأنا مقطعًا، ثُمَّ

فسرناه تفسيرًا إيمانيًا وجدانيًا موضوعيًا، وتوقفنا لأننا شعرنا أننا قد أطلنا عَلَىٰ الإخوة، فنواصل في هٰذَا المجلس، فيتفضل الأخ نور الدين يعيد لنا تلاوة المقطع، ثُمَّ نفسر الآيات تفسيرًا تفصيليًا بقراءة ما سطره الإمام السِعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

(المتن)

قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَأَمِنتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٥-١٩].

قَالَ الإمام عبد الرحمن بن ناصر السِعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك: ١٥] أي: هو الَّذِي سخر لكم الأرض وذللها، لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم، من غرسٍ وبناءٍ وحرثٍ، وطُرقٍ يتوصل بها إلىٰ الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، **﴿فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا﴾** [الملك: ١٥] أي: لطلب الرزق والمكاسب.

﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] أي: بعد أن تنتقلوا من هٰذِه الدار الَّتِي جعلها الله امتحانًا، وبُلغةً يتبلغ بها إِلَىٰ الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتُحشَرون إِلَىٰ الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة وَالسَّيِّئَة.

(الشرح)

(**﴿ذَلُولًا﴾** [الملك: ١٥] أي: هو الَّذِي سخر لكم الأرض وذللها)؛ يعني: سهلةً، عليها، والذلول هو السهل المُنقاد، فالله عَزَّ وَجَلَّ بقدرته جعل لكم الأرض مستقرةً مُنقادةً، ممدودةً مبسوطةً تستقرون عليها.

(**﴿فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا﴾** [الملك: ١٥])؛ يعني: عَلَىٰ الأرض؛ لأن الإنسان لا يمشي في داخل الأرض، وَإِنَّمَا يمشي عَلَىٰ الأرض، وقد تقدم معنا: أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض، وأن في تأتي بمعنى: عَلَىٰ، كما أن عَلَىٰ تأتي بمعنى: في، ففي هنا بمعنى: عَلَىٰ.

والمناكب قَالَ بعض أهل العِلم: هي جوانب الأرض، ونواحي الأرض المختلفة، وأطراف الأرض، فالمقصود: سيروا في نواحي الأرض وسافروا.

وقَالَ بعض أهل العِلم: المناكب هي الأشياء العُليا في الأرض؛ وهي: الجبال؛ يعني: فامشوا عَلَىٰ الجبال فإنكم تستطيعون السير عليها، وإِذَا كنتم تستطيعون السير عَلَىٰ الجبال فمن باب أَوْلى أنكم تستطيعون السير عَلَىٰ المِهاد والوديان، فالمناكب هنا مشبهة بمنكِب الإنسان؛ وهو: أعَلَىٰ الإنسان دون رأسه، فالمقصود بها: الجبال، وكلا المعنيين صحيح، فمناكبها: نواحيها وأطرافها، ومنها: أعاليها الَّتِي هي الجبال.

(﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥])؛ النشور: هو الرجوع بعد الموت.

(المتن)

قَالَ: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦] هذا تهديدٌ ووعيد، لمن استمر في طغيانه وتعديه، وعصيانه الموجب للنكال وحلول العقوبة، فَقَالَ: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] وهو الله تعالىٰ، العالي علىٰ خلقه.

﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦] بكم وتضطرب، حتىٰ تتلفكم وتهلككم.

(الشرح)

(﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦])؛ السماء هنا إِمَّا أن يُراد بها: السماء المعلومة الَّتِي هي طبقةٌ من الطِباق السبعة، فتكون في هنا بمعنى: عَلَىٰ، أأمنتم من عَلَىٰ السماء، فإن ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له العلو الْمُطْلَق، فهو سُبْحَانَهُ مستوٍ عَلَىٰ عرشه فوق سماواته، مَن الَّذِي أخبرنا بهٰذَا؟ ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن تلك الأخبار ما في هٰذِه الآية، وَلَا شَكَّ أنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونحن نقول ما قَالَ ربنا فربنا عَلَىٰ السماء.

وَإِمَّا أن يُراد: العلو، فكل ما علاك سماء فتكون السماء بمعنى: العلو، فتكون في عَلَىٰ بابها، فربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في علو فهو سُبْحَانَهُ العلي الأعَلَىٰ وله العلو الْمُطْلَق.

(﴿أَنْ يَخْسِفَ﴾ [الملك: ١٦])؛ أي: يميد بها إِلَىٰ أسفل.

(﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦])؛ أي: تضطرب وتهتز اهتزازًا شديدًا، والله يُذيق عباده بعض هٰذَا ليدركوا النِعمَة، ألا ترون ما يحصل للأرض عند الزلزال، إِذَا وقع الزلزال اضطرب الأرض واهتزت اهتزازًا شديدًا فتسقط الأبنية، ولا يستطيع الإنسان أن يَثبُت، والزلزال إِنَّمَا يأخذ جزءًا يسيرًا جدًا من الزمن.

فأنت يا ابن آدم تأمل لو كانت الأرض غير مستقرة كيف تعيش وأنت لا تستطيع أن تتحكم في الأرض، والله قد تطوروا تطورًا عجيبًا في العلو ومع ذلك تصيبهم الزلازل ولا يستطيعون منعها ولا يستطيعون دفعها، فإن المُنعِم عَلَىٰ العباد في الأرض المستقرة هو الله، وإِذَا شاء سُبْحَانَهُ أن هٰذَا فعل ويُذيق عباده بعض هٰذَا في الزلازل.

(المتن)

قَالَ: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٧] **أي: عذابًا من السماء يحصبكم، وينتقم الله منكم، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾** [الملك: ١٧] **أي: كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرُسُل والكتب، فلا تحسبوا أن أمنكم من الله أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم، فستجدون عاقبة أمركم، سواءً طال عليكم الزمان أَوْ قَصُر، فإن من قبلكم، كذبوا كما كذبتم، فأهلكهم الله تَعَالَىٰ، فانظروا كيف إنكار الله عليهم، عاجلهم بالعقوبة الدنيوية، قبل عقوبة الآخرة، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.**

(الشرح)

(﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٧])؛ قَالَ بعض العلماء يعني: يُرسِل عليكم ريحًا فيها حصًا صِغار تسقط عَلَىٰ رؤوسكم فتهلككم، وقَالَ بعض العلماء: الحاصِب هو الحجار الصغيرة بدون ريح، فيُرسِل عليكم حجارة صغيرة كما أرسلها عَلَىٰ أصحاب الفيل، فلو شاء أن يفعل سُبْحَانَهُ لفعل.

✓ **والمقصود:** أن الله عليكم قادر، ولو شاء أن يُهلِكَكُم من تحت أرجلكم لفعل، ولو شاء أن يُهلِكَكُم من فوق رؤوسكم لفعل، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لطيفٌ خبير يُعصى فيغفر ويُمهِل، ولا يُغفَر أن يُشرَك به سُبْحَانَهُ.

(﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨])؛ يعني: كيف كان إنكاري عليهم بعقوبتهم وإهلاكهم، والعاقل يعتبر بغيره، والسفيه يعتبر به غيره، فإن كانت عندكم عقول والخِطاب للمشركين فاعتبروا بالأُمَّم الماضية.

(المتن)

قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩] **وَهٰذَا عتاب وحث عَلَىٰ النظر إِلَىٰ حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددةً فيه بحسب إرادتها وحاجتها.**

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩] **فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن في حالة مستعدة للطيران، فمَن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته علىٰ قدرة الباري، وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الَّذِي لا تنبغي العبادة إِلَّا له، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾** [الملك: ١٩] **فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته.**

(الشرح)

(﴿أَوَلَمْ﴾ [الملك: ١٩])؛ الهمزة هنا: للاستفهام، والواو للعطف، والعطف عَلَىٰ مُقدَر، فتقدير الكلام: أغافلوا فلم يروا، فهٰذَا تقدير الكلام.

(﴿صَافَّاتٍ﴾ [الملك: ١٩])؛ يعني: باسطاتٍ اجنحتهن، فالطيور تكون في الهواء باسطة أجنحتها، وغالبًا تطير الطيور معًا مجموعات فتراها كأنها صفوف.

(﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩])؛ يعني: يضربن بأجنحتهن، هكذا قَالَ بعض أهل العِلم: يقبضن فيحركن أجنحتهن، وقَالَ بعض أهل العِلم: معنى يقبضن يضممن أجنحتهن إِلَىٰ أجسادهن وهن طائرات، وذلك من أقدار الله عَزَّ وَجَلَّ لهن عَلَىٰ ذلك.

(﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩])؛ يعني: ما يبقيهن هكذا معلقاتٍ في الهواء إِلَّا الرحمن، وَقَالَ الله هنا: ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩]؛ لأن هٰذَا من رحمة الله بخلقه، فالله يرحم هٰذِه الطيور ويمسكها معلقةً في الهواء، وهٰذَا من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن في حالة مستعدة للطيران)؛ وعلم الله الطير الطيران، الطير عندما يُولَد وعندما يفقس من البيضة في أَوْل الأمر لا يحاول أن يطير؛ لأنه غير مهيأ للطيران، ثُمَّ إِذَا استعد للطيران وخرج الريش يطير، فمَن الَّذِي فهمه ومَن الَّذِي ألهمه، ومَن الَّذِي علمه؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وجعل له هٰذِه القدرة العجيبة عَلَىٰ الطيران والبقاء في الهواء.

(المتن)

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الملك: ٢٠-٢٤].

(الشرح)

في هٰذِه الآيات يخبر الله تَعَالَىٰ المشركين الَّذِين عبدوا معه غيره يبتغون عند تلك الآلهة أن تكون وسيلةً لهم تُقرِبهُم إِلَىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بزعمهم، ويريدون منها النصر والرزق، فيخبرهم أن تلك الآلهة لا تُغني عنهم شيئًا، ولا تملك لأنفسها نفعًا فضلًا عن أن تملكه لغيرها من عُبادها.

فهٰذِه الآلهة الَّتِي تُعبَد وتُرجى عند أَوْلئك المشركين لا تكون لهم عونًا من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إن الكافرون إِلَّا في خديعة فخدعتهم الشياطين، وخدعتهم أنفسهم، ومَن ذا الَّذِي يرزق الإنسان أن حبس الله عنه رزقه؟، والجواب: لا أحد، فلا أحد يرزق أَوْ ينصر إِلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأَوْلئك المشركون يعلمون أن الَّذِي يرزق هو الله وأن الَّذِي ينصر هو الله، فهم يُقِرون بربوبية الله، لكنهم يُشرِكون بالله في ألوهيته، فهم مع علمهم بأن الَّذِي يرزق هو الله، والَّذِي ينصر هو الله فيعبدون غيره، ويستمرون في طغيانهم وفي كفرهم وفي ضلالهم.

وانظروا يا إخوة جمع الله في هاتين الآيتين بين النصر والرزق؛ لأن الإنسان مضطرٌ ومحتاجٌ حاجةً شديدة إِلَىٰ أن يُدفَع عنه ما يضره، ومن أعلَىٰ ذلك أن يُنصَر عَلَىٰ عدوه، وأن يُدفَع عنه عدوه، فإن عدوه لو تسلط عليه لأضره ضررًا عظيمًا، كما أن الإنسان مضطرٌ ومحتاجٌ حاجةً شديدة إِلَىٰ جلب المنفعة له، وأعلَىٰ ذلك وأجلاه أن يُرزق.

والله عَزَّ وَجَلَّ أقام الحجة عَلَىٰ هؤلاء المشركين، فالَّذِي يرزق هو الله، فوالله لو اجتمع الجن والإنس عَلَىٰ أن يرزقوا الإنسان حبةً ما كتبها الله له ما استطاعوا ذلك، ولو اجتمعت الجن والإنس عَلَىٰ أن يمنعوا الإنسان حبةً قد كتبها الله له ما استطاعوا أن يمنعوه، وهم أَيْضًا يعلمون أن الله هو الَّذِي ينصر.

ولذلك لما جاء أبرهة ليهدم الكعبة أخذوا يدعون الله، ويسألون الله النصر، وأن يدفع عن بيته، وما دام ذلك كذلك فالَّذِي يستحق العِبادة هو الَّذِي يرزق وينصر، والَّذِي يُسأل الرزق هو الله، لا يُسأل الرزق من مخلوق، ولا يُسأل الرزق من مقبور يُقَالَ إنه صالح، فوالله لو كان حيًا ما يملك من نفسه إِلَّا ما كتبه الله له، فكيف وهو ميت، فلا يُسأل الرزق إِلَّا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهٰذَا من عبادة الله فإن السؤال والدعاء من العبادة، فهٰذَا يقتضي إخلاص العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثُمَّ ضرب الله مثلًا للكافر ومثلًا للمؤمن، فالكافر مثله فيما هو فيه كمَن يمشي مُنكِسًا رأسه ينظر إِلَىٰ الأرض لا يدري أين يذهب ولا يعرف الطريق، فهو خائفٌ ذليلٌ، وهو أَيْضًا ساقطٌ لأنه يعصي الله، والله لا يوجد كافرٌ عزيز، والله الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هو لا يوجد كافرٌ عزيز، فكل كافرٍ ذليل.

فلا تغتروا بالدنيا ولا تنظروا إِلَىٰ ما في أيديهم إِنَّمَا يستدرجهم الله، فمثل الكافر في كُفرِه كمثل الَّذِي يسير مُنكِسًا رأسه ينظر إِلَىٰ الأرض لا يدري أين يذهب، ولا يهتدي والمؤمن مثله في إيمانه كمَن يمشي منتصب القامة، ويمشي باعتدال، وطريقه واضحٌ بين توصله إِلَىٰ المطلوب، وهٰذَا مثلهما في الدنيا، وهٰذَا حالهما في الآخرة.

ففي الحشر يكون الكافر ذليلًا مُهانًا، فزِعًا خائفًا حَتَّىٰ يُقذَف ويلقى في النَّار إلقاءً، وَأَمَّا المؤمن فمن عند الموت يُطمَن قلبه، ويُبشَر قبل أن تفارق روحه جسده، أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب أخرجي حمدية وأبشري بروحٍ وريحان ورب راضٍ غير غضبان، فما ألطفها من كلمات تُخاطب بها الروح عند سكرات الموت.

فإِذَا بُشِر المؤمن أحب لقاء الله، فيحب الله لقاءه، حَتَّىٰ يساق إِلَىٰ الجنة بإكرام، يقوده رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أَوْل مَن يطرق باب الجَنَّة، ويستفتح فيُفتَح له صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهكذا مثل الكافر في الدنيا وهو يطابق حاله في الآخرة، ومثل المؤمن في الدنيا وهو يطابق حاله في الآخرة، فأي الطرفين أهدى وأعرف بالطريق وأَوْصل إِلَىٰ المطلوب؟ لَا شَكَّ أنه المؤمن.

ثُمَّ يذكرهم الله بنِعمه العظمى عليهم فهو سبحانه الَّذِي ابتدأ خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا، وأنعم عليهم بالسمع، فأنعم الله عَلَىٰ الناس بالسمع، ولو وُلِد الإنسان لا يسمع لا يستطيع الأطباء، ولو اجتمعوا أن يوجدوا له سمعًا، إن وجد خللًا عالجوه بما رزقهم الله من عِلم، لكن أن يوجدوا له سمعًا والله لا يستطيعون، وأنعم عليهم بالبصر بِهٰذِه العين العجيبة، وأنعم عليهم بالقلوب الَّتِي يفهمون بها، وهٰذِه أعظم جوارح الإنسان: السمع، والبصر، والقلب، لِمَا؟ لأنه بها يكون العِلم والفهم، وَإِنَّمَا يتميز الإنسان عن المخلوقات بالعلم والفهم.

ووالله يا إخوة الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هو لو عبدنا الله ليلًا ونهارًا بلا انقطاع ما شكرنا نعمة من هٰذِه النِعَم الثلاث، لكن ربنا كريم أنعم علينا بالنعم الكثيرة وطلب منا القليل، ثُمَّ هٰذَا القليل مصلحة ترجع لنا، فوالله إن مصلحة العبادة ترجع لنا، ويُثيبنا عَلَىٰ القليل بالجزيل، والله لا يهلك عَلَىٰ الله إِلَّا هالك، فيا ليتنا نتدبر يا إخوة، ويا ليتنا نعقل ونفهم والله نكون في خير الأحوال، وعَلَىٰ خير ما يكون.

لكن الكفار لم يشكروا الله عَلَىٰ هٰذِه النِعَم، واستعملوها في الكفر والعصيان، ولم يستعملوها في توحيد الرحمن وطاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثُمَّ يُذكِرهم سُبْحَانَهُ أنه بعد أن خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا كثرهم، وبث منهم رجالًا ونساءً فيخرج من الزوج والزوجة ذرية، ونشرهم في أقطار الأرض، وهم من أبٍ واحد وأُمٍ واحدة، ومع ذلك ألوانهم مختلفة، وألسنتهم مختلفة، والمرجع إِلَىٰ أبٍ واحد وأُمٍ واحدة، فإنه صنع الله وخلق الله.

✪ **فائدة أقولها وإن لم تكن في التفسير هنا فيقول العلماء:** لا يُمدَح بخلق الله، ولا يُعاب بخلق الله؛ بمعنى: لا يُمدح أحد عَلَىٰ أحد بخلق الله فيُقَالَ: هٰذَا أبيض، وهٰذَا أسمر، ولا يُعاب خلق الله، فالله هو الخالق وهو الحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَإِنَّمَا العيب في الدين والأخلاق فيمُدح الإنسان بدينه وأخلاقه، ويُعاب في دينه إن انحرف وفي أخلاقه.

✪ **وَأَيضًا للفائدة ذَكَرَ بعض أهل العِلم:** أن الألوان في البشر مناسبةً لأحوالهم.

ففي كل منطقةٍ يعيش فيها الناس رزقهم الله لونًا يتناسب مع تلك البيئة، فلو لم يكن ذلك اللون لما استطاعوا العيش في ذلك المكان، وإن كان الأفراد قد يختلفون.

فالشاهد: أن الله بعد أن أوجدهم وخلقهم كثرهم.

فمَن الَّذِي يرزق الذرية؟ الله، فتجد الطبيب المتخصص في مسائل الولادة المشهور عَلَىٰ مستوى العالم ثُمَّ تجده بلا ذرية، وأنا أعرف شيئًا بعينه من هٰذَا، هو يُسافَر إليه من كل مكان للعلاج ومع ذلك ما رزقه الله ذرية، وما استطاع أن يفعل لنفسه شيئًا، فالله هو الَّذِي كثرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والَّذِي خلقهم من العدم، ورباهم بالنِعَم وكثرهم، فهو قادرٌ عَلَىٰ بعثهم بعد الموت، فإن الإعادة أسهل من الابتداء.

فالله ابتدأ خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، والَّذِي ابتدأ خلقهم قادرٌ عَلَىٰ أن يعيدهم، فإن الإعادة أيسر من الابتداء، وفي هٰذَا تهديد لأَوْلئك الكفار.

(المتن)

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول تَعَالَىٰ للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك: ٢٠] **أي: ينصركم إِذَا أراد بكم الرحمن سوءًا، فيدفعه عنكم؟ أي: مَن ذا الَّذِي ينصركم عَلَىٰ أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تَعَالَىٰ هو الناصر المُعِز المُذِل، وغيره من الخلق، لو اجتمعوا عَلَىٰ نصر عبد، لم ينفعوه مثقال ذرة عَلَىٰ أي عدوٍ كان، فاستمرار الكافرين عَلَىٰ كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن، غرور وسفه.**

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١] **أي: الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدرون علىٰ رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟ فالرزاق المنعم، الَّذِي لا يصيب العباد نعمة إلا منه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ولكن الكافرون ﴿لَجُّوا﴾** [الملك: ٢١] **أي: استمروا، ﴿فِى عُتُوٍّ﴾** [الملك: ٢١] **أي: قسوة وعدم لين للحق، ﴿وَنُفُورٍ﴾** [الملك: ٢١] **أي: شرود عن الحق.**

(الشرح)

(﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١])؛ يعني: منع رزقه، أَوْ قطع رزقه.

(﴿فِى عُتُوٍّ﴾ [الملك: ٢١] أي: قسوة وعدم لين للحق)؛ وتكبر، فهم قُساة القلوب متكبرون، وهٰذَا الَّذِي منعهم من اتباع الحق، فجحدوا بالحق بعد أن استيقنته أنفسهم قسوةً منهم وتكبرًا.

(﴿وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١] أي: شرود عن الحق)؛ بمعنى: الشرود عن الحق، والرفض له.

(المتن)

قَالَ: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] أي: أي الرجلين أهدىٰ؟ مَن كان تائها في الضلال، غارقًا في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلا والباطل حقًا؟ ومن كان عالمًا بالحق، مؤثرًا له، عاملًا به يمشي عَلَىٰ الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله، فبمجرد النظر إِلَىٰ حال هذين الرجلين يُعلِم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهدٍ من الأقوال.

(الشرح)

(﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الملك: ٢٢])؛ أي: مُنكِسًا رأسه، **والعلماء لهم هنا قولان:**

➢ **القول الْأَوَّلُ:** أنه ينظر إِلَىٰ الأرض يبحث عن الطريق، ومثل هذَا يتعثر في مشيته ويقع ويُصاب.

➢ **وبعض أهل العلم قَالَ:** أنه مُنكسٌ في المعاصي فهو ذليلٌ بها، وتنكيس الرأس كناية عن الذِّلة، فهو ذليلٌ بمعصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(أي: أي الرجلين أهدىٰ؟)؛ السوي: هو منتصب القامة الَّذِي يمشي باعتدال.

(﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢])؛ نحن في سورة الفاتحة نقولها، يقول العلماء: الصراط المستقيم هو الطريق معتدل الواضح الموصل إِلَىٰ المطلوب، فهو يتصل بصفتين: معتدلٌ واضح، ليس فيه اعوجاج، والصفة الثَّانِية: يوصل إِلَىٰ المطلوب، فليس كل طريقٍ معتدل يوصلك إِلَىٰ مطلوبك، فأحيانا تقود السيارة في طريق معتدل لكن تكون تتجه إِلَىٰ خلاف الجهة الَّتِي أنت ذاهب إليها، فالصراط المستقيم هو الَّذِي يتصف بالصفتين؛ هو معتدلٌ لا اعوجاج فيه، ويوصل إِلَىٰ المطلوب.

فالمؤمن يمشي سويًا معتدلًا عَلَىٰ طريقٍ معتدل يوصله إِلَىٰ المطلوب، ولذلك المؤمن بحاجة أن يسأل الله دائمًا أن يهديه الصراط المستقيم؛ لأن الهداية إِلَىٰ الصراط المستقيم تعني: الدلالة عليه والثبات عليه، فليس كل مَن طلب الصراط وجده، فكم من مسلمٍ عَلَىٰ بدعة، وكم من مسلمٍ يريد الدين وهو عَلَىٰ غير ما جاء به مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبعاض الدين في البِدَع، وكم من عبدٍ صار عَلَىٰ الصراط لكن ما ثبت وما استطاع أن يواصل.

فالمؤمن بحاجة أن يسأل الله، ولذلك شُرِع لنا أن نقرأ الفاتحة في كل ركعة في الصلاة لعِظم حاجتنا إِلَىٰ أن نُهدى إِلَىٰ الصراط المستقيم، وينبغي عليك يا عبد الله وأنت تقرأ الفاتحة أَوْ تسمع الفاتحة من الإمام: أن تستشعر أن هٰذَا دعاء لتدخل في جملة من دعا ويُرجى أن يستجيب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(المتن)

قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ﴾ [الملك: ٢٣] **يقول تعالىٰ مُبينًا أنه المعبود وحده، وداعيًا عباده إلىٰ شكره، وإفراده بالعبادة-: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ﴾** [الملك: ٢٣] **أي: أوجدكم من العدم، من غير معاون له ولا مظاهر، ولما أنشأكم، كمل لكم الوجود بالسمع والأبصار والأفئدة، الَّتِي هي أنفع أعضاء البدن وأكمل القوىٰ الجسمانية، ولكنه مع هٰذَا الإنعام ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾** [الملك: ٢٣] **الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.**

(الشرح)

(**والأفئدة**)؛ هي: القلوب، وهٰذِه كما قلنا أدوات العلم والفهم، فالعلم يحتاج إِلَىٰ سمع ويَكمُل بالبصر، ويحتاج إِلَىٰ قلب والفهم يكون في القلوب.

فتعرفون كلام أهل العِلم: هل العقل في الرأس، أَوْ العقل في القلب؟ بمعنى: هل محل الفهم في الرأس الَّذِي يسمى بالمخ، أَوْ في القلب؟ والَّذِي يظهر واللهُ أَعْلَمُ: أن أصله في القلب وله اتصال بالرأس، لكن أصله وتمامه في القلب.

(**مع هٰذَا الإنعام ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾** [الملك: ٢٣] **الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر**)؛ نعم فهم لم يستعملوا نِعَم الله في طاعة الله ولا في توحيد الله، بل كفروا وأعرضوا.

لعلنا نقف هنا؛ لأنها الجمعة فما نُحِب الإطالة عَلَىٰ الإخوة، ونُكمِل غدًا إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَصَلَّ اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَسَلَّمَ.